

كيف تحذف ستة ملايين برميل: عن ضربةٍ غيرت كلَّ شيء



بقلم: عامر محسن

«ليكن هذا النفط فدائياً أو ننسفه ونعيش على العزّة والحطب»/ مظفر النواب

الذين خططوا للهجوم على مجمّع "أرامكو" في بقيق، كانوا يعرفون ماذا يفعلون. إن قيل إنّ نقاط الضعف في الدّول الخليجية تتمثّل في منشآت النفط ومحطات إنتاج الطاقة ومعامل تحلية المياه، فإنّ موقع بقيق (تكتب أيضاً «ابقيق») يضمّ أكبر وحدةٍ لمعالجة النفط في السعودية، وفيه أيضاً محطة طاقة هائلة، وملحقٌ به معملٌ ينتج ما يقارب ثلث المياه التي يتمّ تحليتها في السعودية.

حتّى نفهم أهميّة مركزٍ مثل بقيق في عمليّة إنتاج النفط، ولماذا يشكّل "نقطة خنق" في المنظومة، فالقصّة بتبسيط هي كالآتي: النّفط، حين يخرج من باطن الأرض، يكون في حالة ضغطٍ عالية، ويختلط به غازٌ وشوائب، فلا إمكانية لاستخدامه وهو خارجٌ من البئر. عليك أوّلاً أن ترسل النفط الى وحدة تكريرٍ خاصّة (تكون عادةً على مقربة من موقع الإنتاج) تعالج النّفط لكي يعود الى مستوى الضغط الجوّي

الطبيعي، ويُفصل عنه الغاز، ويصبح في الإمكان إرساله الى المصافي أو الى مرافئ التصدير. من دون هذه العملية، لا يمكنك استخدام النفط أو حتى استخراجه وتخزينه؛ وموقع بقيق كان يعالج كل النفط الذي يخرج من حقل "الغو" الهائل وحقول مجاورة، أي ما يقارب نصف إنتاج السعودية أو خمسة بالمئة من الاستهلاك العالمي بأكمله.

من هنا، وصف أحد الخبراء موقع بقيق بأنه "أثمن عقار على كوكب الأرض"، ولهذا السبب اتّصل ترامب بولي العهد السعودي "معزّياً" وقلقاً بعد الهجوم (هو لا يتّصل بقيادة الخليج حين يُقتل جنودهم وضباطهم، مثلاً، في اليمن، ولكن هذه مسألة «تمسّ الاقتصاد الأميركي والعالمي»، على حدّ قول ترامب)، ولهذا السبب تخرج التصريحات التهديدية من بومبيو وغيره. وقد حصل، بالتّوازي، استهداف مجمّع قرب حقل "خريم" أيضاً، ولكنّ التسجيلات التي خرجت من بقيق، حيث السّكن قريبٌ الى مكان الهجوم، هي التي صنعت الحدث من الناحية الإعلامية وأظهرت حجم ما جرى؛ إلّا أنّنا نعرف أن الإنتاج في حقل "خريم"، هو الآخر، قد توقّف. في كلّ الأحوال، فإنّ هذا الهجوم، على عكس سابقه، لا يمكن "إخفاؤه" والتستّر عليه تحت شعار "حريقٍ بسيط تمّت السيطرة عليه"، إذ إنّ آثاره ستكشف عن نفسها في سوق النفط؛ أعلنت السعودية أنها قد خفضت إنتاجها بأكثر من خمسة ملايين برميل يوميّاً (أي ما يعادل إنتاج الإمارات والجزائر وليبيا معاً)، وكشفت صور الأقمار الصناعية عن سحب الدخان تتصاعد على طول خطّ الأنابيب الذي يخرج من "الغو"، في دليلٍ على قطعٍ فوريٍّ للإنتاج (حين يتوقّف الإنتاج فجأةً في حقلٍ نفطيٍّ، فأنت تضطرّ الى تنفيس الضغط في الأنابيب عبر سحب كمياتٍ من النفط الذي يندفع بداخلها، وإحراقه في أماكن معدّة لهذا الغرض).

زعم مسؤولون سعوديون لوكالات غربية أنّ الإنتاج سيعود خلال أيّام، ثمّ عاد وزير النفط السعودي ليقول إنه سيقدّم تقييماً للأضرار خلال يومين من دون التزامٍ حول موعد عودة الآبار الى العمل، وهنا الاختبار القادم لحجم الحدث: خلال 48 ساعة، إن عاد الإنتاج الى الحقل الكبير وأصدرت "ارامكو" بياناً مطمئناً، فسوف ترتاح الأسواق، وإلّا تكون قصّةٌ أخرى (المضاربون، بلا شكّ، يقومون الآن بالمراهنة على ما سيحصل بعد يومين، ويشترون عقود نفطٍ مستقبليةً أو يضاربون ضدّها). لا تسمح الحكومة السعودية بنشر صورٍ للأضرار، فالجميع يخمّن في هذه المرحلة، ولكن خبيراً نفطياً عمل في مواقع مشابهة يقول إنّّه، بالنظر الى صور الانفجارات، فهو لا يتوقّع أن تكون هناك أيّة أجزاء لا تزال تعمل في المجمّع بأكمله. إصلاح منشآت بهذا الحجم يستغرق أشهراً، وإعادة بنائه تستلزم سنوات — ولكنّ البلد النفطي يمتلك طاقة احتياطية لمعالجة النفط في مواقع أخرى، وقد يكون بالإمكان نقل نفط "الغو" اليها. ولكنّ جوهر الحدث هنا هو أنّ المحرّم قد كُسّر، وشاهدنا "درّة التّاج" للنظام النفطي وهي تشتعل عالياً ووهجها يضيء السّماء، لا حصانة ولا مناعة لمصالح النفط، والسؤال الأهمّ: ما الذي يمنع

تكرار هذا الفعل بعد الآن؟ لهذه الأسباب لا يزال العالم يحاول استيعاب ما جرى، وفهم شروط المرحلة القادمة في المنطقة، بعدما أرسى اليمنيّون فجر السّبت معادلةً جديدة: عشر طائرات مسيّرة مقابل ستة بالمئة من إنتاج النفط العالمي.

أبراج النفط تحترق

السؤال الحقيقي، بالمعنى التاريخي، هو ليس "لماذا حصل الهجوم" أو "كيف؟ بل لماذا تأخّر الأمر حتّى اليوم، حتّى فعلها اليمنيّون؟ الغريب هو أنّ عبد الناصر لم يفعلها، والعراقيّون لم يضربوا النظام السّعودي — بعد كل ما فعلته الرياض بالعراق — في مكانٍ يؤلمها؛ والغريب هو أنّ السوريّين لم يردّوا بصواريخهم على مصدر الشرّ حتّى حين احترقت بلادهم، وإيران نفسها — على طول الحرب المريعة مع العراق — لم تقدم على ضرب مراكز النفط مباشرة (ولو فعل أحدهم ذلك لما كذّبنا اليوم هنا). ولكنّك، حين تستسهل العدوان على الغير، وتعيد الكرة مرةً بعد أخرى، سوف تقع في نهاية الأمر على من سخّره الله لإذلالك؛ والتّاريخ يرتّب الأمور ليصنع لنا مشهداً كهذا، فيه أمثولةٌ وحكمة. يكفي أن تقارن بين اليمنيّ المحاصر الفقير وبين الأبراج اللامعة الهائلة في موقع "شركة الزيت العربية الأميركية" في بقيق، وكيف قام اليمني بالانتقام ممّن غزا بلاده فأحرق أبراجه ومنشآته التقنية الثمينة، حتى تفهم أنّ ميزان القوى في الإقليم قد انقلب بشكلٍ حقيقيٍّ؛ وأنّ اليمنيّين هم وحدهم من ردّوا الصّفة إلى النظام السّعودي، نيابةً عن كلّ ضحاياه.

المسألة هنا ليست في "الشّماتة" أو "الحقد" (والحقد ليس خطيئة حين يكون مستحقّاً)، وإن لم نحقد على النظام السّعودي فعلى من نحقد؟. الشّماتة الحقيقيّة، والحقيرة، هي حين تنظر لغزوٍ يدمّر اليمن ويقتل مستقبل الملايين، والشّماتة هي حين تعيش مرحلة ازدهارك وانت تجوّع العراق تحت الحصار، ثمّ تزرع مدنه بالمفخخات، والشّماتة هي حين تهلّل لتحويل سوريا إلى أفغانستان. تقول شركة "ارامكو" إنّ أحداً لم يصب في الهجوم، والخسائر ماديّة بحت، وهي أصابت قلب النظام السّعودي؛ فعلام يفترض بنا أن نحزن، كعربٍ يعيشون حالة الحرب الدائمة في هذا العصر الخليجي؟ على وضع "سوق النفط العالمي"، أم على إصدار أسهم "ارامكو"، أم على خزينة الأمير وتمويل جيشه ولوحاته ويخوته؟ كلّ ما في الأمر هو أنّ "نمط انتاج الثروة" في المنطقة قد تعرّض لتعديل؛ بعدما كان مال النفط يذهب لتمويل الهيمنة على العرب، والهيمنة عبر التمويل، ولإشعال الحروب الداخليّة، وأخيراً، الغزو المباشر، أصبحت الثروة النفطية هي الأخرى في مرمى العربي الفقير، ونفطك ليس أغلى من دمهم.

من الجهة السياسيّة، فإنّ أوّل ما حصّله اليمنيّون كان أنهم قد ضمنوا انتهاء الحرب عليهم. لم تعد مسألة استمرار الحرب خياراً بالنسبة إلى الرّياض، واستمرار مثل هذه الضربات يعني الإفلاس ببساطة.

دخلت الرياض الحرب وهي مطمئنة، بلا شك، إلى أن بناها الحيوية ستكون خارج مدى اليمينيّين، وأن أقصى ما يملكونه هو بقايا من ترسانة الـ«سكود» القديم. لو تخيّل ابن سلمان أن اليمن سيطوّر، تحت الحرب والقصف، قدرات ويذهب بها إلى مواقعهم الحسّاسة، لما دخل الحرب بالتأكيد، بل لمنعته أميركا من خوض الحرب. واليوم، حدّثى لو أراد ابن سلمان أن يستمرّ في القتال في اليمن، فإنّ ترامب سيمنعه.

حقّاً، فإنّ البعض يملك نظرةً سحريّةً عن مفهوم "التفاوض" و"المناورة" و«الذكاء»، كأزّها في ذاتها يمكن أن تتحايل على ميزان القوى، فيما التاريخ يثبت لنا — للأسف — بأنّك لا تكون مقنعاً في المفاوضات إلّا وأنت توجّه مسدّساً من تحت الطاولة، وغير ذلك قد تطول الحرب في اليمن — وغير اليمن — لسنوات، فيما السياسيّون يفاوضون و«يناورون». نقطة الضعف معروفةٌ منذ زمن، وهي جيوب حكّام الخليج، فهم لا يهمّهم أن تهزم ميليشياتهم في الإقليم، أو أن يموت كلّ من يدفعون له الرواتب ليقاتل (هم يتابعون هذه الأحداث، بفرحٍ أو تحسّر، كمن يشاهد مباراة رياضيّة)، ولكن أن تصل إلى نقطتهم وميزانيّتهم فالأمر يختلف تماماً. منذ سنتين، كانت الرياض تفاوض اليمينيين على نصف اليمن، والبارحة كانت تفاوضهم على شكل النظام في المستقبل. أمّا اليوم، فهدف التفاوض — ببساطة — هو أن يوقف اليمينيّون هجماتهم ويكفّوا عن المنشآت الحساسة السعودية (وهذا خبرٌ سيئٌ جدّاً لحلفاء الرياض في اليمن، فهم آخر من سيتمّ اعتباره في سياقٍ كهذا). والجميع في المنطقة يراقب ويأخذ العبر.

نقاط الضّعف

البديل أمام الرياض وواشنطن هو أن يوسّعوا دائرة الحرب ويجعلوا الهجوم عليهم مكلفاً عبر جرّ إيران أو العراق إلى المواجهة (فلم يعد هناك لدى اليمينيين ما يمكن أن تهدّد بهم به لتردعهم). ومنذ اللحظة الأولى للهجوم، والإعلام السعودي يحاول أن يجد "مذنباً"، داخلياً أو خارجياً، يعلّق عليه ما جرى. خرجت نظريّة بأن الطائرات (أو الصواريخ الجوالة) قد أُطلقت من العراق؛ ثمّ اتّهم بومبيو إيران، وفي النهاية قالها السيناتور ليندسي غراهام بوضوح: يجب ضرب المصافي الإيرانية كردّاً على ضرب المصافي السّعوديّة.

لو كانت هذه الأمور تجري في الثمانينيات لكانت هذه التهديدات حقيقيّة وجديّة، بصرف النظر عن القانون الدولي والأحققيّة والدلائل المادية وكلّ هذه الأمور؛ سهّلت أميركا والخليج ضرب منشآت النفط الإيرانية يومها، وكادت في أواخر الحرب أن تعطّل التصدير الإيراني، لأنّها كانت تعرف حدود قدرات طهران في لعبة التصعيد. لكن الإيرانيين تعلموا من تلك التجربة، ومن سنوات الحصار، والشئ الوحيد الأكيد في حالة التصعيد العسكري هو أن ترسانة إيران تعطّيها القدرة على مسح كلّ البنى النفطية في

الخليج (وهجوم السّبت يجعل ذلك خارج دائرة الشك). وفي حالة "السيناريو النووي" هذا، فإنّ ثمن المنشآت الخليجية وتأثيرها على السوق، من ناحية، أكبر بكثير من نظيرتها في إيران و، من ناحية أخرى، فإنّ إيران — من بين دول الخليج — هي الأقدر على البقاء والاستمرار (أو الاستمرار لفترة أطول) من دون إنتاجٍ نفطيٍّ وتصدير. لهذه الأسباب كلّها، فإنّ الحرب الموسّعة لن تحصل.

بومبيو، من جهته، يستخدم المفاوضات المحتملة كوسيلة للضغط، عبر القول بأنّ هجماتٍ كهذه تجري بدعمٍ وتشجيعٍ من طهران، وهذا يعني أن الأميركيين لن يجلسوا معهم على الطاولة. غير أنّ أميركا تقيم، أصلاً، أقصى حصار دبلوماسي واقتصادي ممكن ضد إيران، وقد نقضت الاتفاق النووي. هل يعتقد بومبيو حقّاً أنّّه سيجعل روحاني يذهب إلى الحرس الثوّري، ويطلب منهم وقف التّعاون مع جماعة الحوثي، لأنّهم يهدّدون "فرصة المفاوضات"، وأنّهم سيستمعون إليه؟

بالحديث عن ميزان القوى والاستعدادات العسكريّة، فإنّ هناك شيئاً يجب أن يُقال عن انكشاف أهمّ موقعٍ اقتصاديٍّ سعوديٍّ أمام هجماتٍ من هذا النّمط. لو كنت مكان حكّام الرياض، لما حاولت توجيه الغضب ضدّ مذنبٍ خارجيٍّ، بل بدأت بمعاينة الجنرالات في جيشي. أثنى موقعٍ لديك وعقدة انتاج النفط في بلدك، وانت تعرف شكل التهديد، وقد حصلت هجمات مماثلة في الماضي، ولا تحميه بشبكةٍ هائلة من الدفاع الجوي، متعددة الطبقات وتعمل على مدار 24 ساعة؟ الأهداف بالطبع كثيرة ولا يمكن حمايتها كلّها، غير أنّ هذا — تحديداً — هو الأكثر حساسية على الإطلاق (توجد تقارير أميركية منذ عام 2006 عن مجمّع بقيق، وهشاشته، والضرر الذي قد ينتج من اخراجه عن الخدمة). أنفقت الحكومة السعودية على الدّفاع الجوي والطيران مالاّ يكفي للدفاع عن سماء الاتحاد السوفياتي، ولا تقدر على حماية أهمّ مرفقٍ لديك؟ هذا يعيدنا، باختصار، إلى أوّل ردٍّ فعلٍ لي حين استقوت حكومات الخليج على اليمن، واستسهلت أن تعلن الحرب عليه. انتم، بصراحةٍ، لستم أهل حربٍ ولا تقدرّون عليها، فلماذا ترمون بأنفسكم تحت ثقالها؟

خاتمة

الصّور الأوليّة للأقمار الصناعية تظهر أنّ الأذى في مجمّع بقيق لم يكن عشوائياً: لقد تمّ استهداف وحدة معالجة النفط تحديداً، وفي عدّة مواضع (وليس معمل الطاقة مثلاً، أو الصهاريج). لقد تمّ وضع اليمنيين في موضعٍ لم يعد لديهم فيه ما يخسرونه، فأصبحوا يهددون بأن يخسر ابن سلمان كلّ شيء. هذه ليست ضربة قد تكون أنهت حرباً فحسب، بل هي ستكون حاضرة في الذاكرة لدى كلّ مفصلٍ قادمٍ في شؤون المنطقة، وعند كلّ نقاشٍ عن توزّع الثروة واستخدامها، ولهذا هي تغيّر "كلّ شيء".

اختتم الثلث الأول من القرن العشرين بحربٍ بين اليمن الإمامة والدولة السَّعودية التي كانت لا تزال في مرحلة "التوحيد". هزيمة اليمن رسمت حدود المملكة من الجنوب وخلقت واقعاً مختلفاً، وتراتبية جديدة للقوة في شبه الجزيرة. ما أصبح واضحاً اليوم هو أن اليمن لن يخرج من هذه الحرب خاسراً مهزوماً ناقص السيادة، فهذه الأمور قد استردّها اليمنيّون بقوة ساعدهم، وهم لن يفاوضوا مجدداً من موقع الضعيف.